باب التربية والتعليم

(الأزهر والأزهريون — وفاضل هندى)

إلى السيد الحكيم الفاضل محرر مجلة المنار الغراء.

لست فى حاجة أيها السيد الحكيم لان أسهب لكم القول فى فضل الانتقاد والمنتقدين وما لهم من الأيادى فى ترقية الامم فان العوان لا تعلم الحمرة ، وهذا منارکم الاغر لا يكاد يقف على رأس كل سنة حتى يكون قد ذكر فصولا ضافية فى الانتقاد . وانه لمقام لما اعوج من اعمال الامم والرافع لما حمل من شأنها والآخذ بيدها على مدارج الرقى والكمال . وعلم الله انه لا حامل لى على أن أوجه بسطورى هذه اليكم آملا فى نشرها على صفحات منارکم الاعظم الثقة ووطيد الامل بانكم لا تخشون فى الله لومة لائم وأنه لا يوقفكم عن السير فى سبيل الاصلاح غرض لهيان أو هنات مما يكتب فى صدر فلان .

خرجت ذات يوم إلى منتزه الجيزة لأبدد ما تراكم بصدرى الحرج من الهموم والاكدار فى تلك الرياض الفسيحة وذاك الفضاء الممتد حتى إذا كنت على قيد اذرع من رأس المنتزه الجديد حيث تقف هناك مركبات الكهرباء القادمة من الأهرام فالجيزة إذا انا باحد صبية الفلاحين وقد أخذ ناحية عن أعين الناس وهو قابض على كثير من الأوراق المكتوبة يتصفحها واحدة واحدة وبعضها يتناثر من بين يديه إلى حيث تتلاقفها ايدى الرياح فتعبث بها اضعاف عبثه من قبل فاهويت إلى واحدة منها وقد جرى بها الريح إلى ما تحت قدمى فاذا بها كلام عربى فتقدمت نحو الغلام وتلطفت فى طلبها منه وأمرته ان يذهب فيجمع لى ما فرقته يد الهواء فى مقابلة فامتثل اعطيته إياه ففعل شاكراً وذهب طيب الخاطر راضى النفس بعد ان علمت منه أنه عثر عليها وقد لقت فى خلاف على طريق الكهرباء فيما بين الجيزة والجزيرة واخذت أنا طريقى الأول إلى حيث أشجار الليخ القائمة على ضفة النيل الغربية فجلست هناك فى ظلها الوارف وكان الوقت اصيلا وصرت اقلبها واجيل فيها النظر واطيل الفكر حتى تكشف لى امرها بعد طويل إمعان واعمال روية انها صحائف سودها بعض الفضلاء المنتمين بالدين من دعاة الاسلام الذين من بادئ بدء يقال لهم (الله أباد) وعلمت من مجموعها ان الرجل احسن السفر وجانبهم الخطار وجواب

اقطار من حيث لا صاحب له إلا همة يحاول أن يطأ بها قمة العيوق ونفس تنزع به إلى ذرى شرف لا تتطاول إليه الاعناق وقد تجلى لى من رسائل كانت ترد إليه أن الرجل سيد بلدته وأشرف بنى جلدته، قدم هذه الديار سائحاً متجولا كما جال فى كثير غيرها من بلدان المسلمين ولا هم له التنقيب عن ادواء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها وقد عاهد صديقا له فى (حيدراباد) على أن يوافيه برسائل متتالية يصف له بها كل ما يراه من ادواء الاسلام وعوامل ضعفه وأسباب تأخره ولقد قلبت فى الاوراق كثيراً وقد كتب بعضها بالأوردية والبعض بالعربية على أحد فيها ما يشير إلى الرغبة فى كتمانها وصونها عن أنظار غيره فلم يظهر لى إلا عكس ذلك فقد وجدت فى أولى رسائله عبارة صريحة يأذن لصاحبه فيها بنشر ما كتب ويكتب لكل من أحب . وأهم ما رأيت فى تلك الرسائل ثلاثاً بعث بها إلى صاحبه فى حيدر اباد يصف له فيها الأزهر والأزهريين بعبارة لا تسلم من العجمة ولكن لم يركب بها مخارم الاغراب ولم يتدل إلى حضيض العامية المبتذلة وقد تحامى فى انتقاداته خشن القول وغليظ الكلام حتى جاء كلامه أكرم انتقاد واعفه وأكفه وأحفه . لذلك احببت ان ابعث بها إلى أعظم مجلة إسلامية وارسخها قدماً فى الاسلام وأحبها لنشر فضائل رجاله وأحرصها على رأب صدعهم ومداواة دائهم وقد تصرفت بالعبارة تصرفاً لا يمس شيئاً من المعنى راجياً أن لا تضيعوا لى املاء . والله لا يضيع أجر من احسن عملا، وهذه صورة الرسالة الأولى

(من القاهرة إلى حيدر أباد)

سلام عليك أيها الأخ الفاضل امد الله فى حياتك ولا حرمنى إخاءك واسبغ على ردا، خلالك . وبعد فقد ورد إلى كتابك الكريم أحوج ما كنت إليه فاستعذبته وحسن موقعه من قلبى وما ذكرت ايها الاخ من استبطاء المراسلة واشفاقك من أن يصرم البعد حبل الود ويطفى غلة الشوق والوجد ويضرب على ما سبق به الوعد فأنا استغفر لك الله فى ذلك وهو العليم بحالك فى فؤاد أخيك مهما شطت به دار الغربة وبعدت به النجعة . وما كان لى وأنت موضع ثقتى ومكان اخلاصى وبك أعتقد وعليك اعتمد ان اظهر قولك زورة طيف أو انى وعدك لمحة طرف وانما هى الاسفار أو رتتنى من الضعف والشحوب والانضاء ، مالو رأيته لاصبحت عذيرى فيما ارتكبت من الابطاء، ويعلم الله انى اكتب لك ما اكتب وأنا نضو سفر قد الحفنى من وعثائه جلباباً، وفل اطرقة ضربت على من رواقها قبابا ، ولقد كان الاجدر بى أن لا اكتب لك

كلة حتى أتزيد من الراحة أياماً واسترد بعض ما فقدت من القوة لولا ما أخشاه من جرح صدرك وتغير فؤادك – فأما ما ذكرتنى به وآخذتنى على تأخيره وسألتنى إنجازه من زيارة مدرسة الأزهر الاسلامية الهائلة واستعجالى بزيارتها إن لم أكن فعلت ثم بالكتابة إليك بما استبان لى من أمرها وطريقة التعليم بها وأن أسهب لك القول فيما أجده بها من مواضع النقد والملاحظة . فقد صادف جميع ما ذكرت سابق رأى منى فيه . وان منسة يزيد عدد طالبيها على تسعة آلاف من المسلمين ما بين مصريين وسوريين وروسيين وعرب واتراك وبربر وهنود لجديرة بأن لا أنساها فى سياحتى بل جديرة بأن تكون زيارتها ودرس أحوالها جل ما أبتا قاصده من تجوالى فى ربوع الاسلام غير أن كتابك قد ورد على وأنا لم يمض لى غير يومين فى القاهرة وقد مضى يومان آخران من تاريخ وروده وأنا لم أزر تلك المدرسة إلا زورة واحدة لا تذكر لك من الضعف واللغوب وسأكتب عمودجا بما وقع لى منها فى تلك الزورة مرجئاً التفصيل والاسهاب لغيرها من الرسائل ولا غرو أيها الفاضل ان أنبئك رسالتى هذه مختصرة فى الوصف مقتصرة على ما ذكرته لك على وجه الجملة شأن من كان غريب الدار غريب اللغة فأقول :

كثيراً ما كنت أسمع من اخوانى فى الهند إذا حادثتهم فى شأن الازهر كلمة مقولة وهى (الازهر أكبر مدرسة دينية اسلامية على سطح الكرة الأرضية) فكانت اهتز لذلك من الارتياح والطرب « كما اهتز تحت البارح الغصن الرطيب » . وطالما كان يقع فى أذنى إذ ذاك انه على كثرة طالبيه وتعدد معاهيه قليل النظام مختل طريقة التعليم عقيم النتيجة ولكن ما كان ذلك لينتزع من قلبى تلك الهزة وذاك الاعجاب به وبكثرة طلابه وما كان ليوئسنى من أن أجد فيه إذا دخلته قليلا من النظام وبعض الترتيب ولقد بت ليلة قدومى إلى القاهرة من الوجد لزيارته بايلة المسوع . حتى إذا كنت من صباح الغد وبلغت الساعة . أسرعت بركوب عربة إليه ودخلت فاذا ساحة مترامية الأنحاء لافرش فيها إلا الغبراء ولا غطاء عليها إلا السماء غير انها تخلو من جمال هندام فى جدرانها وكمال هندسة فى شكلها واتقان صنعة فيما يحيط بها من الأبواب والنوافذ ورأيت بها والفصل كما تعلمون شتاء أناساً كثيرين يتشمسون وقد اشتغل البعض بتلاوة القرآن والبعض بالمذاكرة فى كراسة بيده وآخرين ما بين

مستلق على ظهره ومنكب على وجهه ومن بينهم من التفوا حول أدون المآكل يأكلون فيها بشهوة النهوم فألقى فى روعى لأول الأمر أنها ساحة يستريح بها الطلبة فى أوقات معلومة بعد طول المطالعة والدرس ، وإجهاد القوة ونصب النفس ، فعذرتهم إذ ذاك على استلقائهم وانكبابهم وتزاحمهم على المآكل لتعويض ما اندثر من أدمغتهم عقب الجد والتحصيل ، والاشتغال الطويل ، غير أنى لم ألبث هنيهة حتى أخبرنى صاحب إلى جانبى من الطلبة السوريين — وكنت قد اصطحبته لمثل هذه الحال — بأن تلك الساحة قطعة من المدرسة نفسها وان ما أراه إنما هو نظامهم فى الطلب والتحصيل فكدت أن أصعق إذ ذاك وتلبد فكرى بغيوم الكدر والحزن حتى أوشكت أهلك أسى وغماً — ولقد كنت أرى فى تلك الساحة الرجل وقد كبرت سنه حتى خارت قوته ورق عظمه فانحنى ظهره ، وضعف عضده ، حتى رعشت يده ، وكل بصره حتى لا يبصر إلا شفا وانه على ذلك كله ليجلس وإلى جانبه فتى حديث السن غض الشباب ماطر له شارب ولا خط له عذار وكلاهما يدرس ويتفاهم مع الآخر على أنه من أضرابه فى الطلب ومنافسيه فى التحصيل ويجلس كل منهما فى حلقة درس واحد. ثم اخترقت تلك الساحة وأنا مدهوش العقل ذاهل اللب لما أراه من اجتماع الأضداد والمتناقضات وولجت من باب هناك إلى المقصورة المعدة للتدريس وقد كنا قبيل الظهر فإذا محل فسيح الأرجاء ذو سقف يقوم على نحو أربعمائة عمود يخال لى منه شكلها أنها نقلت إليه من المعابد والهياكل القديمة تميد بهما تلك الألوف ميداناً وهم على مثال من رأيت فى صحن المدرسة من اختلاط الحابل بالنابل وتلاشى النظام والترتيب إلى حد ظننت معه أنهم مأمورون بذلك وان من قوانين التعليم هناك استئصال حب النظام من الصدور كما يستأصل الخلق السيء. وأعجب ما رأيته بين الطلبة من سلطان العادة على النفوس أن الطالب هناك لا تحلو له المذاكرة ولا يروق التحصيل إلا إذا رفع صوته بأقصى ما فى إمكانه فيتألف من مجموعهم دوى يصم أذن القادم عليهم فاخترق بى صاحبى السورى الجموع حتى انتهى بى إلى محل هناك يقال له (رواق الشوام) فصعد بى على مدارجه إلى غرفة هناك استرحت بها قليلا وكان قد أذن الظهر فقال لى الصاحب هلم نمر بالدروس وهى منتظمة أما الدوى فلا يلبث أن يسكن لاشتغال الطلبة بالسماع من معلميهم فلم أتمالك نفسى علم الله من البكاء على أثر قوله انتظام الدروس وقلت ومهجتى تذوبه من الأسى فتنحدر من عينى

دموعاً : يا حبذا ذاك الدوى لو كان زمجرة رعد تبشر بسقوط غيث العلم من سماء على صدور الطالبين ، فتنبت ما يقوم بشفاء داء الإسلام والمسلمين .

ثم قمت وقام الصاحب حتى إذا كنا فى واسطة الدرج أخذت أرسم له كيف يمشى فى الدروس وذلك أن يبدأ بدرس أول كتاب يدرسونه فى النحو ثم ينتقل بالتدريج حتى درس آخر كتاب اصطلحوا أن يكون خاتمة الطلب فى الفن ففعل وكان أول درس وقفت عليه درس الكتاب الأول وأول كلمة سمعتها فيه قول المعلم «واختلف فى الجار والمجرور هل هو متعلق بظرف أو بفعل؟ » فالتفت إلى صاحبى وقلت أو تهزأ بى ياهذا. ألم أقل لك أن تذهب إلى أول كتاب فقال : لم أهزء بك والشيخ إنما يقرأ أول كتاب فى النحو ويقرر ثانى درس فى الكتاب. فقلت لن يثبت ماتقول فى نفسى حتى ترينى آية ذلك فأشار إلى غلام يليه من الدرس فسأله ماذا يقرأ الشيخ ياصاحبى؟ قال الكفراوى. قلت أنا والكفراوى ماذا. قال أول كتاب يقرأ فى النحو. فأخذت بيد صاحبى إذ ذاك وأنا خجل من اتهامى إياه وقلت اذهب بى توا إلى الدروس الثانوية حتى أرى ماذا يقرأون .. ولا أريد أيها الأخ أن أطيل لك القول فى هذه الرسالة بتفصيل مارأيته بعد ذلك بل أجمل لك فيه القول إجمالا . وجدت معلم الكتاب الثانى يشتغل بتعريف المركب من المنطقة طويلا ثم لوى زمام الكلام إلى تعريفه عند اللغويين فالبيانيين فالتوحيديين إلى فنون أخر ذهب عنى أسماؤها وحفظ تعاريف واضعيها . أما الدرس الثالث فكان الشيخ فيه منهمكا فى تعريف الرثة واختلاف الأطباء الأقدمين فيها وما قالوه فى تكييف الصوت إلى كلام طويل. وكان ذلك كله استطراداً من قول النحاة اللفظ صوت مشتمل على بعض الحروف. وعلى ماذكرت لك كان الحال فى بقية الدروس حتى إذا انتهيت إلى درس آخر الكتب كان يخيل لى أن الشيخ إنما يلفظ رطانة لا أفهمها وإنى لأقسم لك وأنت تعلم قدر اعتنائى بالعربية وشدة شغفى بها أنه لم يعلق بذهنى من كل ما سمعته إلا كلمتين إحداهما قوله بين أجزاء كل جملة وعلى رأس كل كلمة «قال الشيخ رحمه الله تعالى» والثانية ذكر سبب تسمية سيبويه من أن سيب اسم للرائحة بالفارسية وويه اسم للتفاح. هذا ما رأيته وأقول لك على الجملة فى مدرسة بعيدة الصيت طائرة الشهرة فى كل قطر من بلاد المسلمين حتى كاد بعضهم أن يعلق بها الأمل فى نجاح كل عمل .

ومما هو جدير بى أن أجمل لك فيه القول فى الرسالة ان سنى الطلب يغلب أن تكون من خمس عشرة سنة إلى ما يحتمل أن يعمر إنسان والطالب يشتغل

هناك بالكتاب الأول فى السنة الأولى ثم بالكتاب الثانى فى الثانية ثم بالثالث والرابع والخامس والسادس فى خمس سنين ثم ينتقل من النحو ويكون قد حضر ما يقابله من كتب الفقه إلى علوم البلاغة ثلاث سنين ثم يصرف ما بقى فى تلقى كتاب كبير فى الأصول وفى خلال هذه المدة يكون قد حضر فى أوقات غير مضبوطة ولا منتظمة علوم التوحيد والمنطق والتفسير وبعد أن يأتى على ذلك كله درسا يكون يكون على خيار من أن يتقدم لشهادة الدراسة أو يرجع إدراجه إلى تلك الكتب والفنون فيتلقاها درساً درساً ويعيدون ذلك فيما بينهم – اعادة المذهب . وقد ضمنى مجلس مع أحد المترشحين لشهادة الدراسة وكان ممن أعادوا المذهب فرأيت منه رجلا وقورا صالحا على رأس الخمسة والأربعين من عمره غير أن بلسانه حبسة وعياً فعمدت إلى أن أعرف مبلغ علمه بالكتابة فقدمت إليه بلطف طلب ورقة سؤالها جاجياً أن يكتب لى ما تيسر من إنشائه ولما لم أفلح أكثرت عليه من الإلحاح والإلحاف فى الطلب فاكتفى بأن أخرج لى كتاباً كان قد حرره لأخ له من أبيه أصغر منه سناً يرتزق من الفلاحة والزرع يرجو منه إرساله شيئ من النقود والزاد ويبشره بقرب نيل الشهادة أحببت أن أبعث به إليك بعد أن أقسم لك بالله قسما حقا لا آثما فيه ولا حانثا أنه على أصله ما تخونت منه حرفا واحداً وهو كما ترى قد قبضت من أسطره روح البلاغة وانطفأ منها نور البيان وجفت منها غضاضة الذوق فى التعبير ولقد كانت النفس تجد لها بعض السلوى وتلتمس لكاتبها شيئاً من العذر لولم تكن الرسالة محشوة بالأغاليط الصرفية واللحنات النحوية كما يظهر ذلك لأول نظرة فيها – ولله حكمة خافية فى عمانى سنوات مضت فى درس النحو والصرف – هذا ما أذكره لك فى رسالتى هذه إجمالا وسترى فيما يتلوها إن شاء الله وافيا شافيا والسلام عليك ورحمة الله (الإمضا) .

وسأوافى حضرات قراء المنار الأغر بالرسالتين الباقيتين اللتين أرسلهما لصاحبه من هذه وهما كما قلت غاية فى آداب الانتقاد والاعتدال مما يستميل قلوب العقلاء إليه ويستدر ألسنة الثناء عليه .

عبد العزيز عثمان القرشى
بالأزهر

(المنار) نشرنا هذه الرسالة تنشيطاً لكاتبها الأديب وبياناً لكيفية التعليم فى الأزهر يعرف ذلك بالتفصيل من لا يعرفه من أهل الأقطار الإسلامية وننتظر أن تكون الفائدة فى رسالتى الهندى الأخريين أتم مما فى هذه الرسالة .